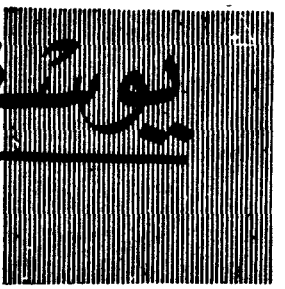

يوسف كرم

ومأساة الانسان الحديث ...

بقلم غانم شكري

يمكن تسميته ـ بحق ـ شيخ الفلسفة الحديثة . لا لان الرجل قد علم جيلا من اساتذة الفلسفة ، ولا لكونه جاوز السبعين منذ بعيد . وانما كان يوسف كرم شيخا بالمعنى القديم الرائع الذي يؤهل حامله للصدارة فيما تخصص من علوم جيلـه .

ولم يكن أستاذنا الراحل مفكرا مدرسيا ، ممن ينهجون في حياتهم طريقا لايحيدون عنه ، ثم يأتي اخرون ، فيمضون عبر هذا الطريق ، لا عن رغبة صادقة قانعة ، وانما طلبا في اليسر والسهولة . ومما يؤسف له ان اللقب السريع الذي نخلعه على هؤلاء السذج هو انهم « تلاميذ » فلان المفكـر العظيم .

لم ير يوسف كرم في كل ماكتب بناء مدرسيا يمكن أن يؤمه التلاميذ ، ولم ير فيه ايضا معبدا مقدسا يتعبد في هيكله التابعون . ذلك لان استاذنا كان يؤمن بالفلسفة ايمانا يغاير ماتواضع الناس على تسميته .

كانت الفلسفة عنده ، ككل باحث علمي ، مفهوما عاما للطبيعة والمجتمع . ألا انه كان يضيف الي هذا التعريف الموجز كلمة واحدة هي المعاناة . اذ يصرخ في كل مؤلفاته على ان الفلسفة لاتقرأ وتـدرس ، وانما تعانى وتتمثل . وكانت المعاناة والتمثل ، كما يراهما ، يختلفان في النتيجة من فرد الى اخر . ومن هنا جاء تساؤله : كيف يمكن لبضعة افراد تتباين قدراتهم العقلية واستعداداتهم ، ان يتتلمذوا ـ بالمعنى القريب للفظة ـ على أستاذ واحد او بين جدران مدرسة واحدة .

وزاد الامر وضوحا حين قال ان الفلسفة لاتقوم على هندسة هرمية كما هو الحال في كثير من العلوم ، ومن ثم فهي لا تصلح لان تكون قالبا متساويا يصب فيه عقل من العقول .

فقوانين العلم غالبا ماتصبح ـ بعد جهد ـ متجانسة البراهين والمقدمات والنتائج . وبالتالي يصبح ميسورا على طالب العلم ان يتتلمذ على منهج ما ، بكل ماتحتويه التلمذه من معاني التلقي والفهم ومحاولة الاستكشاف والخصائص الذاتية للاداب والفنون ، تصلح ان تكون مادة بنائية لمدارس النقد وعلم الجمال .

ولكن الفلسفة لاتملك هذه الخامات الاولية لتشييد المدارس وصنع الاساتذة . وحطم يوسف كرم بهذا الراي قاعدة قديمة اريد بها في الماضي ان تخطط الحواجز بين الاتجاهات المختلفة ، وان تكون حجابا ضخما بين تيارات الفكر المتعددة .

وقيل ان الرجل احب هذه الكلمات تواضعا . وهذا الراي مردود بان الرغبات الشخصية لاتفسح لنفسها مجالا في الاعمال الفكرية . ثم اننا نتفق جميعا في ان يوسف كرم لم يؤسس بالفعل مدرسة في الفلسفة ، ولم يخطط اتجاها فيها . وانما كان الرجل باحثا طبعته مهنة التدريس بسمات المعلم . ولا شك اننا ـ جميعا ـ تلقينا الكثير من يدي الرجل ، ولا ريب ايضا انه كان ذا مزاج فلسفي خاص ولكن هذه الدلائل لاتقيم صرحا لمدرسة فلسفية او مذهب فكري ، ان شئنا الدقة في التعبير ، وارتضينا ماوافق عليه أستاذنا وهو ان طبيعة الدراسات الفلسفية لاتدع من الباحثين فيها اساتذة ، ولا من طالبيها تلامذة ، ولا من اتجاهاتها مدارس .

*

ولو تتبعنا خطا رئيسيا ينتظم مؤلفات يوسف كرم لعثرنا على المنهج الذي رافقه طيلة حياته في ميدان البحث الفلسفي . ولا يعوزنا الكثير من الجهد اذا عرفنا ان العرض التاريخي المحايد هو المنهج الذي تميزت به اعماله . فهو اذا حدثنا عن تاريخ الفلسفة اليونانية ، اعقب حديثه بتاريخ الفلسفة الاوروبية في العصر الوسيط ، ثم توج الرجل خطه المستقيم بكتابه القيم عن تاريخ الفلسفة الحديثة .

وربما اردت ذات يوم ان يكشف لك الرجل عن خبيئة نفسه وتساءلت : اين يوسف كرم ؟ فاذا هو سؤال قلق في حاجة الى اطمئنان . واسارع فأطمئنك بان العرض التاريخي المحايد لفلسفات العالم هو منهج غير متكامل . لان العرض التاريخي لسير الاحداث ـ فكرية كانت ام اجتماعية ـ لايمكن ان يكون محايدا لان طريقة العرض واختيار الموضوع يكشفان عن مكان المؤلف دونما عناء . غير ان يوسف كرم اراح القارىء كثيرا حين كان يكشف عن موقفه في مقدمات ابحاثه ، او في تعليقاته المتناثرة هنا وهناك .

ولم يشأ الرجل ان يتهم بالغموض ، فكتب « العقل والوجود » وكتابه الاخير « الطبيعه وما وراء الطبيعه » فأوضح ماغمض من مزاجه الفلسفي .

فاذا سألتني اين يقف استاذنا الراحل ، اجيبك بأن النشأة الدينية الحصبة التي ترعرع يوسف في احضانها ، كانت عنصرا هاما في بنائه الفكري . والعنصر الثاني هو رحلته الى باريس حيث كانت امتدادا لحياته الاولى . وعندما عين استاذا للفلسفة بالجامعة عام ١٩٢٥ كانت الاجواء الاقتصادية للشرق العربي تطعم الطبقات الشعبية معنوياتها الروحية . والجامعة ـ بطبيعة الحال ـ هي الممثل الفكري للبناء الاقتصادي . ومن هذه العناصر الثلاثه تكونت حياة يوسف كرم . فقد نما من ذراعي الكثلكة الشرقيه التي كانت تعبيرا فكريا عن التكوين الاقتصادي والاجتماعي الذي عاشه (١)

ودرس الفلسفة الغربية في لحظات احتضارها . وعاش في عصر الاقطاعية ، التي كممت افواه الشعب بروحانيات الشرق ، وسرقت منه الخبز للسادة والسلاطين .

وكان لابد لشاب يفكر وسط هذه الظروف المتساندة المتآزرة ،ان يتخير أتجاها روحيا هاربا من الارض ومشكلات البشر . فالاهتمامات الغالبة على وجدان يوسف كرم ، تفزع من الخوض في المستقبل المجهول لبني الانسان وربما ازدرت الحواس البشرية في اجتهاداتها المتوالية للنمو الانساني .

وعلى هذا الضوء نرى حديثه عن الفلسفة اليونانية مفعما بالحب والامل . ولعل ارسطو ـ بالذات ـ هو مصدر التفاؤل عند يوسف كرم لحل مشاكل الدنيا (*) . والفلسفة اليونانية في جملتها هرم شامخ أقيم على الوهم ، او بناء سامق شيد في فضاء الخرافة . وما كان للمجتمع اليوناني في تلك العصور السحيقة ان ينبت غير الاسطورة . فالعلم كان طفلا يحبو ، ولا تفسير لمفارقات الحياة اليومية الا في معاجم الكهنة والآلهة . وما كان لمفكر ـ مهما اتسع ذكاؤه ـ الا ان يبحث عن الحقيقة في مشكلات البشر بعيدا عن ارض البشر .. ..هناك في طوايا الغيب ، في تلافيف ذهنه المتوقد بشرارة السماء !

ولذا استراحت المناهج الساذجة حين اعتبرت العبقريات الفردية منحا من الآلهة ، واخذت في تفسير التكون من هذه الزاوية القاصرة .

واتضحت مأساة ذلك العصر في وضوح ، اذ لم تكن الآلهة سخية في منح عطاياها العبقرية . ومن ثم راحت الاساطير تنسج مأساتها في الشعر والملاحم والدراما . ولو سألنا سوفوكليس عن حقيقة « أوديب » لما ردنا الى فرويد . لان الحقيقة البعيدة هي ان أوديب كان تعبيرا حاسما عن مأساة عصره ، تلك المأساة الواهمة التي احاطت العبقرية الفردية بسياج من الدموع .

ولا يستغرب من القدامى ان يعيشوا على هذا المنهج ، لانهم لم ينسجوا الاسطورة ، وانما كانوا نسيجها الحي .

اما نحن الذين تفصل بيننا وبينهم القرون ، فيجب ان نحذر السذاجة في تفسير فلسفاتهم . وحينئذ نقول ان القاعدة الاقتصادية للمجتمع اليوناني هي التي انعكست بشكل حاد على القمة الروحية والفكرية لذلك المجتمع . ولا ريب اذن أن النظام العبودي القديم هو الاب الشرعي لتلك التهويمات الضالة .

ويوسف كرم ـ بحكم ظروفه الموضوعية ـ لم يستطع ان يضع هذا المنظار في رؤية الفلسفة اليونانية . ولذا رأيناه يصور المأساة الاغريقية على انها كارثة القصور الذهني عند عامة البشر ، رغم ان المأساة الحقيقية تكمن بين اضلع التكوين الاقتصادي والاجتماعي .. لا بين تلافيف المخ البشري .

*

فاذا تصفحنا الفلسفة الاوروبية في العصر الوسيط ، نلحظ اصرار من استاذنا على سلامة منهجه دون ما عداه. فهو لا ينحرف قيد انملة عن طريقه الذي بدأه بل يلتزم حدوده في صرامة وبلا تهيب .

عندئذ توشك معالم طريقه هذا ان تتضح . لان العصور الوسيطة ـ في الشرق والغرب ـ كانت بداية الازمة الحقيقية في عالمنا الحديث . فمجتمعات الرق والاقطاع القائمة على الاستبداد والعبودية هي التي أذنت بالانفجارات التالية ، او كانت ـ على اقل تقدير ـ النواقيس الناشطة في طرق ابواب الثورة ، اينما وجدت لنفسها بعد ذلك مشعلا وفتيلا .

كانت المجتمعات الاوروبية في القرون الوسطى تعاني ازمة التناقض الجذري في نظمها الاقتصادية والاجتماعية. ولكن يوسف كرم الذي لايقرب الواقع الانساني الا في سبحاته التأملية المجردة ، لم ير في العوامل المادية حكما فاصلا على أزمات الحياة . ورأيناه ، لذلك ، يركز المأساة الوافدة على اعناق السادة والنبلاء الذين داسوا اخلاقياتهم « النبيلة » في سبيل شهوات « زائلة » . وهكذا حل التناقض الاجتماعي بان حمل على « اخلاق » الملوك و « فساد » البابوات ، وكأن القيم الاخلاقية ليست نتاجا طبيعيا للاوضاع القائمة .

وحين عزل يوسف كرم بين الاخلاق والمجتمع ، كان يضع ـ في حقيقة الامر ـ مفهوما مثاليا لرؤية المجتمع الانساني فالناس لايولدون ، وفي شرايين بعضهم تجري دماء زرقاء وفي عروق الاخرين تجري الدماء الحمراء والسوداء

---

(١) الاقطاع

(*) انظر « تاريخ الفلسفة اليونانية » ـ يوسف كرم

(١) ـ راجع : تاريخ الفلسفة الاوروبية في العصر الوسيط ليوسف كرم

وهكذا . وانما التفاعل الدائم بين المجتمع والانسان هو الذي يصنع المثل والقيم والاخلاقيات .

*

واذا رافقنا يوسف كرم الى شاطىء الفلسفة الحديثة ، بلغنا مأربنا في التعرف الحميم على الرجل لانه عاش عمره في هذا العصر الحديث ، ونحن ايضا ابناء العصر نفسه . وهكذا نلتقي عن قرب ، ونتعارف دون خوف من مسافات زمنية شاسعة .

والانسان الحديث هو عصارة المجتمع الحديث ، بكل ماتحتويه هذه العصارة من عناصر المأساة .

فالتقدم البشري المذهل في ميدان العلوم ، قسم العالم شيعا ومذاهب . فقوم أجفلوا من هذا التقدم ، وفروا الى احضان الطبيعة هاربين من ارض الواقع الصلبة .. فروا الى متاهات الاحلام والزهور ، يحملون في ايديهم معاول الهدم لتقويض الحضارة العلمية وطورها الصناعي الوليد. وقوم اخرون رأوا الناس من خلال عجلة الآلة الدائرة ، فرأوا المجتمع يدور في حلقات ميكانيكية متتابعة ، او دوائر مفرغة مغلقة لاسبيل للخروج من اطارها الى الابد . وقوم اتخذوا من العلم معوانا سيطروا بواسطته على ظروفهم ، وحققوا لانفسهم حريات اوسع .

اين يقف يوسف كرم في هذه الدوامة العاتية ؟

لا نفرطه حقا اذا قلنا انه لم يفكر طويلا في الامر ، لانه منذ ان غمس وجدانه في احلام البشر ، وهو على درب واحد لم يتغير .

وكان التفسير الواقعي لمأساة الانسان الحديث ، هو ان الآلة التي جاء بها العلم لخدمة الانسان ، اصبحت حكرا في ايدي نخبة من افراد المجتمع ، يمتصون بها دماء الايدي المنتجة . واصبحت علاقات الانتاج بين الناس مزيجا متفاعلا من الاستغلال والنهب والامتصاص . وتكونت طبقة صغيرة تستغل هيمنتها ـ التاريخية ـ على الآلة ، وطبقة اخرى مستغلة تقدم اقصى ماتستطيع من عرق ودم ، لتحفظ لنفسها ماهو دون الرمق .

لم يع البعض هذا الصراع الجديد ، ولكنهم احسوا بالازمة في عمق ، وحينئذ ثاروا على الآلة نفسها ـ ظنا خاطئا بانها السبب ـ وهاموا على وجوههم الى غابات الاحلام.

والبعض الاخر نجح في استغلال التطور التاريخي لمصلحته البقائية ، فدافع عن الآلة ، بشرط أن تبقى بين الايدي المالكة لها ، لا بين الايدي التي تديرها . واصبحت ظروف الانسان وحدها ، عند هذا الفريق ، هي القدر الجديد الذي لا محيص للانسان من ان يستسلم له .

واستجابت الطائفة الاخيرة لمقومات الصراع ، فنظمت علاقات الانتاج على اساس علمي استردت به الوسائل الانتاجية من الافراد ، واعطتها لسادة الآلة الحقيقيين ذوي الايدي العاملة .

وتبلورت مأساة الانسان الحديث في انه يعيش عمره في مجتمعات قائمة على المباراة الاقتصادية لا على التآخي والمشاركة وتكافؤ الفرص .

ولم يلتصق هذا المعنى بوجدان يوسف كرم ، لانه رأى في الصراع معنى آخر . فهو اذا تحدث عن خصائص العصر الحديث في أيامنا ردها الى اثنتين : « الفردية العنيفة في الادب والدين والسياسة ، والعناية البالغة بالعلم الآلي وتطبيقاته العلمية الرامية الى توسيع سلطان الانسان على الطبيعة والزيادة في رخائه . وسيكون لكل هذا صدى قوي في الفلسفة : ستستقل الفلسفة عن الدين ، فتكون هناك فلسفة الحادية ، وتكون هناك فلسفة تشيد بالعلم الآلي وتحصر مجالها على قدر مجاله . او تجتمع هذه الوجهات المختلفة في بعض المذاهب مع تفاوت بينها ، وتظل الاجيال الى الان حائرة مترددة ، تعتنق المذاهب وتخلعها الواحد بعد الاخر ، وتستبدل نظاما من الحياة بنظام»(١)

والاجيال ، في واقع الامر ، ليست حائرة ولا مترددة.. وانما هذه الحيرة القلقة هي الثوب الشريف الذى غلف

---

(١) يوسف كرم ـ تاريخ الفلسفة الحديثة ـ ص ٨

كوليت سهيل

تقدم

ايام معه

رواية

يصدر في شهر نوفمبر

يوسف كرم منذ بدأ يفكر .

واذن، فأين استاذنا ازاء الانسان الحديث ؟

انه يكتفي ـ صادقا ـ باحساس عميق بالازمة ، ويبلغ في تصويرها الفلسفي حدا رائعا . فهو يشكو التكالب الرهيب على « ماديات » الحياة ، وينعي « روحانياتها » التي ديست تحت النعال. ولكنه يتوقف عند اعتاب الانفعال العاطفي الصادق ، ولا يتعداه الى محاولة الكشف عن جذور المأساة . ولعل هذا هو الوحيد الذي دعاه يتعلق بأرسطو كحبل للنجاة من السفينة الغارقة . يقول في ثقة ان الروحية العصرية عرجاء ناقصة ، فان الفلسفة الحديثة في جملتها لا تؤمن بالعقل ومعانيه ومبادئه ، ولا تؤمن بجواهر ثابتة حتى تقول بنفس خالدة واله شخصي مفارق للطبيعة . فالروحانية مفتقرة في الواقع الى فلسفة وجودية موضوعية كفلسفة ارسطو ، ولا ندري ما اذا كانت العقول العصرية تأخذ انفسها بمثل هذه الفلسفة ، او تمضي في محاولاتها العقيمة (١) »

فالخلاف بين يوسف كرم و « الروحانية » ليس عداء او كراهية ، وانما لكون الروحية العصرية «ناقصة» عن المعنى المثالي في ذهنه ، يرى ان مأساة الانسان الحديث في انه يفتقر الى فلسفة وجودية موضوعية كفلسفة أرسطو .

وهكذا يفزع استاذنا الى أرسطو، لان منهجه(٢) لا يبحث في الظروف الموضوعية داخل الزمان والمكان . ولذا غاب عن وعيه ان تلك الظروف التي انبتت ارسطو تغاير الظروف التي ولدت يوسف كرم . ولا نعني باسم استاذنا حروفا كونت علما ، وانما نستهدف القول بأن يوسف كرم كان تعبيرا حيا عن الظروف الموضوعية في زمان معين ومكان خاص ... وهذه الظروف تتباين تماما مع ظروف ارسطو .

ولكن هذه العودة الخلفية من جانب يوسف كرم تشير الى مغزى اخر، هو الحلقة المفرغة او الدائرة المغلقة التي عاشها .. فالرجوع الى ارسطو هو عودة الى الفلسفة اليونانية ، وكأن مأساة الانسان الحديث هي مأساة الانسان اليوناني القديم ، بلا ادنى تغير او تبديل . وكان يبدو هذا صحيحا لو ان استاذنا قصد منه منهجا علميا تبين على هداه ان المجتمع الانساني ظل قائما على التفرقة الطبقية بين سادة وعبيد ، منذ كان المجتمع العبودي الى مجتمعنا الراسمالي المعاصر ، والاختلاف بين اسلافنا وبيننا هو اختلاف درجي فحسب .

الا ان ذلك كان يقتضي ان نبحث في تفاصيل هذا القانون العام ، ونضع ايدينا على نواميس التطور الاقتصادي للمجتمعات ، ونعرف حينئذ ان النظم الاستغلالية والاستعمارية المعاصرة ، لا يمكن ان تتجمد في طورها الحاضر ، وانما هناك تطور جديد في استطاعته ان يسهم في حل الازمة .

وليست هذه هي النتيجة التي توصل اليها الاستاذ يوسف كرم . ان عودته الى أرسطو لا تعبر عن مأساة واحدة تجمع الانسان بين المجتمعين القديم والحديث . لان التطور يقضي بان يسير الباحث في خط متقدم ، ولكن استاذنا مضى في جولته الدائرية داخل حلقة مغلقة . والجولات الدائرية لا تفسح مجالا للتطور ، وانما للعودة ، ويتحقق القول الساذج « التاريخ يعيد نفسه » !

رغم ان هناك فروقا حاسمة بين الانسان اليوناني القديم وبين الانسان الحديث ... بين المجتمع اليوناني القديم والمجتمع المعاصر .. ويستحيل ـ اذن ـ ان يلد عصرنا فيلسوفا يدعى ارسطو .

غير ان يوسف كرم قال كلمته ومضى . قال ان التوتر السائد في عالم اليوم هو افراز حتمي للمباراة الحضارية المعاصرة . قال ايضا ان المفكر الحر هو الذي يعبر في حرية عن مأساة الانسان الحديث . وقال الرجل أشياء كثيرة ، ولا نحسب الا انه كان صادقا في التعبير عن نفسه ، ومجتمعه ، وعصره جميعا .

القاهرة — غالي شكري

(١) ـ يوسف كرم ـ المصدر نفسه ـ ص ٩

(٢) اي منهج يوسف كرم

مكتبة انطوان

فرع شارع الامير بشير

ص.ب ٦٥٦ ـ تلفون ٢٧٦٨٣

جميع الكتب المدرسية

باسعار لا تزاحم